الكونت تولستوي الروسي

(تابع ما قبله)

اثبتنا في الجزئين السابقين وصف الحالة التي يُرى فيها الكونت تولستوي في مصيفهِ حيث يقضي نصف السنة مع الفلاحين يشاركهم في اعمالهم ويثبت اقوالهُ بافعالهِ . ونحن مثبتون الآن وصف الحالة التي يُرى فيها في دارهِ بمدينة موسكو حيث يقضي النصف الآخر من السنة اي فصل الشتاء يقابل الزوّار ويشرح لهم آراءهُ ويراجع كتبهُ التي ألّفها وينقحها ويقرأ مسودات طبعها . زارهُ الكاتب لونج الانكليزي منذ سنتين في مدينة موسكو وكتب عن هذه الزيارة ما ملخَّصهُ قال

ان كل ما كُتب عن تولستوي حتى الآن كتب عنهُ وهو في مصيفهِ يسنايا پوليانا ولم يكتب عنهُ شيء وهو في دارهِ بموسكو لان الرجل الذي تراهُ في موسكو ليس تولستوي نفسهُ بل ظلهُ ترى فيها الرجل النظري لا الرجل العملي فلا تفهم حقيقة آرائهِ وتعاليمهِ الاَّ في مصيفهِ حيث يقرن العلم بالعمل والقول بالفعل . والناس في الغالب قوّالون لا فعّالون فاذا رأيت رجلاً فعّالاً يفعل كما يقول ويعمل كما يعلّم فاعلم انهُ من النوادر التي يتوق المرء الى معرفتها ولذلك كثر قصّاد تولستوي الى مصيفهِ ووصفهم اياهُ فيهِ حيث يرونهُ يفلح الارض ويحصد الغلال ويربي المواشي ويصنع الاحذية ويعلم الاولاد واما تولستوي النظري الذي يسطر آراءهُ في كتبهِ ويصححها وينقحها فقلَّما يعرفون من امرهِ شيئاً

وهو يقيم في موسكو فصل الشتاء كلهُ كما تقدَّم ولكن كأنهُ ليس من اهلها حتى رجال العلم والفضل فيها لا يعرفون من امرهِ كثيرًا . اقمت فيها شهرًا ولم اسمع من اخبارهِ ما يشفي الغليل فكان البعض ينسب اليهِ امورًا في حد الغلو ويقول غيرهم ان الحكومة الروسية عازمة على نفيهِ قريبًا ويقول آخرون بل ان ولاة الامر راضون عنهُ لانهُ يقاوم آراء الماديين الشائعة بين تلامذة المدارس

والظاهر ان اهل بيتهِ لا يدعون الناس يقابلونهُ الاَّ من ندر منهم لعلمهم انهم اذا اباحوا لكل احدٍ ان يدخل ويراهُ ضاع وقتهُ كلهُ في مقابلة الزوار لكن للاجانب امتياز حيث كانوا لقلّة عددهم . وقد بلغني ان الكونت يرحّب بالانكليز خاصَّة ولعلَّ سبب ذلك قلّة من يراهُ منهم فسمح لي بزيارتهِ حالما طلبتها . وبيتهُ في اطراف المدينة على نحو نصف ساعة في وسطها وهو من البيوت القديمة يشبه من ظاهرهِ بيوت التجّار وحالما دخلتهُ رأيتُ في دارهِ كثيرًا من

اردية ضباط الجيش معلقة فيها كأنهم كانوا زوّارًا في تلك الساعة . والبيت دوران وغرفة الكونت حيث يقيم ويستقبل زواره في الدور الاعلى لكن لابدَّ لمن يدخل اليها من ان يمرَّ في كثير من غرف البيت لان الغرف تفتح بعضها الى بعض لكي تتوزَّع الحرارة فيها على السواء . وقد رأيتها في زيارتي الاولى وزياراتي التالية غاصة بجمهور الزوّار من الطبقة العليا في المدينة وهم يلعبون العابًا مختلفة وتبدو عليهم سيماء البهجة والحبور كأن زوجة الكونت واولاده لا يشاركونهُ في آرائهِ بل يعيشون مثل سائر الناس الذين من طبقتهم . وفي هذه الغرف من القماش والرياش ما في بيوت الطبقة العليا من الروسيين فكأنَّ تولستوي يحلل اقتناء هذه الحطام ولو كان لا يشارك في استعمالها . ووصلت الى غرفتهِ فوجدتها صغيرة فيها اثاث بسيط ولكن لا الى الدرجة القصوى . فيها خزانة للكتب ومقعد وكراسي وطاولتان عليهما كتب وجرائد . غرفة رجل يطلب الراحة ويزدري الفخفخة لكنها تخالف سائر الغرف التي مررت فيها مخالفة كبيرة فكأن غرفتهُ مثلهُ واما بيتهُ فمثل العالم الذي يعيش فيهِ . عالم حقيقي لا يتكرهُ ولا يستطيع الانقطاع عنهُ بل لا بدَّ لهُ من السير فيهِ كما لا بدَّ لهُ من المرور في غرف بيتهِ قبل الوصول الى غرفتهِ وبذلك امتاز على كل المعلمين لانهُ وفّق بين الآراء الفلسفية والمصالح المادية او لم يدع الواحدة منها تلاشي الاخرى

ومنظرهُ ينطبق على ذلك فانهُ منظر رجل حكيم كبير العقل ولكنهُ ليس منظر رجل متخيل متفلسف . رأيتهُ بقميص الفلاحين كما رآهُ غيري في مصيفهِ ولكن لا شيء من المشابهة بينهُ وبين فلاحي الروس فهو معتدل القامة عريض الانف واسع المنخرين غليظ الفم واسع الجبين صغير العينين غائرهما تمثلاً لأ عيناهُ تحت حاجبين كثين تدلُّ ملامحهُ على انهُ حاد الطبع فيهِ شيء من دم التتر لو هذَّب لحيتهُ وشاربيهِ لظهر وجههُ مثل وجوه ضباط القوازق لا مثل وجوه الفلاحين الودعاء

لما دخلت غرفتهُ لم يكن فيها ثم جاء مسرعًا بعد بضع دقائق ومعهُ نسخة من المجلة البيضاء الفرنسوية واوراق كثيرة تحت ابطهِ فحيّاني وجلس في كرسي كبير وشرع يذمُّ قصَّة كان يقرأها حاسبًا اني قرأتها قبلهُ . وهو يحسن التكلم بالانكليزية لكن لهجتهُ فيها روسيَّة ثم أخذ يسألني عن غرضي من زيارة روسيا ولما وجد اني اتكلَّم الروسيَّة لم يعد يكلمني الاَّ بها وكلامهُ فيها بسيط فصيح جدًّا خالٍ من التصنع يلحهُ بالنكات الادبية والامثال ويميل فيهِ الى لهجة الفلاحين حتى اذا عرض ذكر المظالم والمغارم صعد الدم الى وجههِ واحتدَّ في كلامهِ كأنهُ خُلق ليحارب الظلم والبطل ويدافع عن العدل والحق . وهو سموح لا يعارض مَن يخالفهُ

في الرأي ولكنهُ غيور لا يحتمل المقاومة والمعارضة ولا سيما اذا عارضهُ احد في المبادىء العامة. واذا تكلَّم عن شيءٍ يكرههُ تكلَّم عنهُ بالاحتقار والازدراء

وقد علمتُ من امرهِ انهُ ينهض باكرًا و يشتغل في كتبهِ ودفاترهِ ولا يقابل زوارهُ الاَّ في المساء ويعاملهم كلهم معاملة واحدة اقارب كانوا او اباعد اغنياء او فقراء . وهو جلود على الشغل ينقّح ما يكتبهُ مرارًا ثم ينقح مسوداتهِ كثيرًا حتى يفضل الطباعون ترتيب حروفها ثانية على تصحيحها و يساعدهُ اولادهُ في نسخ ما يكتبهُ . وهو لا يحتمل ان ينتقد احد آراءهُ في كلياتها ولكنهُ يسرُّ بانتقاد الجزئيات و يرغب فيهِ

ولما زرتهُ المرَّة الثانية رأيتهُ وقد اتمَّ كتابة كتاب الى البعض من اعضاء مجلس النواب الاسوجي وكانوا قد كتبوا يسألونهُ عن رأيهِ في دعوة القيصر الى عقد مؤتمر السلم فاجابهم ان ما عرضهُ القيصر باطل ولا يمكن العمل بهِ لان الحكومات الحاضرة لا تستطيع ان تبطل الحروب ولا ان تخفف ويلاتها . ثم قرأ لي جوابهُ وكان كلما قرأ فصلاً منهُ يقف و يقول لي افهمتَ مرادي حتى أتى على آخرهِ فقال هذا ما ارتأيهِ في مؤتمر القيصر فانهُ كلهُ سخافة ورياء لا غير . ولا تستطيع الحكومات الحاضرة ان تبطل الحروب ولا تريد ابطالها لان الحروب ليست عرَضًا طارئًا عليها بل هي جزءٌ جوهري من قوامها لازم لوجودها فاذا قلتُ ان هذا المؤتمر رياء بريء لا اعني ان الحكومات التي اشارت بهِ واشتركت فيهِ قصدت ان تراني قصدًا ولو كان عملها رياء . اذا قلتَ انك عازم على تغيير شيءٍ لا يغيَّر ما لم تغير طبعك وانت غير عازم ان تغير طبعك فانت مراءٍ. فاقتراح القيصر رياء وقبول حكومات اوربا بهِ رياء ومامنهم من يعتقد نجاحهُ وكأن الحكومات تريد ان تخفي اعراض دائها لكي تحوّل اذهان شعوبها عن العلاج الشافي لكنها لا تفلح في ذلك ولا يستطيع هذا المؤتمر ان يقلل الحروب ولا ان يقلل مضارها . اذا تسلح رجلان وكان كلٌّ منهما يعتقد ان مصلحة الآخر ضد مصلحتهِ فلا يأتمن احدهما الآخر ولا يركن اليهِ ولا يصدق كلامهُ اذا عاهدهُ على السلم لانهُ لو صدَّق كلٌّ منهما الآخر لما بقي داعٍ للسلاح. واذا استطاعت المالك ان تعيش بالسلم من غير ان يكون عند كلٍّ منها مليون جندي تستطيع ان تعيش بالسلم من غير ان يكون عند كلٍّ منها الف جندي لان القلة لا تمنع الحروب اذا كانت الكثرة لا تمنعها . لما حُوصرت سفستوبول رأى البرنس اورسوف ان احد الحصون أُخذ واستُردَّ مرارًا فقال للقائد العام دعنا نطلب من الاعداء ان يعينوا رجلاً منهم يلاعب رجلاً منا بالشطرنج فمن غلب كان الحصن لهُ . ولا شبهة في ان القائد ضحك من هذا الاقتراح لانهُ يعلم ان الفريق الذي يخسر الحصن بالشطرنج لا يكف عن

استرجاعه بالسلاح اذا استطاع . والناس يفصلون خصوماتهم بقتل بعضهم بعضاً لا بلعب الشطرنج لان الغالب هو الذي يتخن في خصومه ويضطرهم الى الكف عن مقاومته . والمغلوب يتربّص بغالبه الفرص حتى اذا استقوى واستضعف خصمهُ عاد الى الاخذ بالثار . وقد يضع المؤتمر قواعد وقوانين لمنع الحروب ولكن هذه القواعد والقوانين لا تمنع دولة من ان تدّعي ان خصمها هو الذي نكث العهود اولاً

وقلت لهُ ان الحكومات قد لا تمنع الحروب ولكنها تقلل مضارها . فقال هذا وهم ورياء من الذين يدّعونهُ ومصلحتهم قائمة ببقاء الحروب وقد قلت انهُ رياء لان الغرض منهُ اقناع الناس بان مضار الحرب يمكن ان تقلّ كثيراً فانك ترى الحكومات تمنع استعمال الرصاص المنفجر لانهُ يجرح ولا يقتل حالاً ولكنها لا تمنع استعمال الرصاص العادي مع انهُ كثيراً ما يجرح ويؤلم والسبب الحقيقي لمنع الرصاص المنفجر انهُ لا يقتل حالاً فلا بقي بغرضهم وهو التنكيل بعدوهم حتى يضطر الى التسليم والخضوع . ولذلك لا اريد ان ينجح هذا المؤتمر ولا انا معتقد بنجاحه وان نجح فيكون منهُ ضرر لانهُ يحول افكار الناس عن الحل الحقيقي الذي يمكن العمل بهِ في كل مكان وهو ان يخضع كل انسان لضميره والضمير يقول لهُ ان قتل الناس غير جائز فاذا اقتنع كل انسان بذلك بطلت الحروب من نفسها وعجزت الحكومات عن اثارتها

فقلت لهُ ولكن هبْ ان امةً من الامم اقتنعت بصحة رأيك وعملت بهِ فلا ينتظر ان امم العالم كلها ترى رأيها حينئذٍ وتفعل مثلها وهب ان امة من هذه الامم اعتدت على الامة الاولى وحملت عليها أفلا تضطر الامة الاولى الى حمل السلاح للدفاع عن نفسها

فقال لا لانهُ يجب عليها ان لا تقتل غيرها والواجب واجب كيفما كانت الحال

وكنت اقرأ كتاباً لاحد الروسيين اقام مؤلفهُ الادلة الكثيرة على ان الحرب تجارة خاسرة ولا بدَّ من ان تبطلها الدول لهذا السبب . وبلغني ان هذا الكتاب اثّر في القيصر تأثيراً شديداً وانهُ هو الذي دعاهُ الى اقتراح عقد المؤتمر . وليس في الكتاب دليل واحد ادبي على وجوب ابطال الحرب بل كل ما فيهِ ادلة عملية على ان الحرب تجارة او مضاربة لم يعد منها ربح بسبب الاحوال الحاضرة فصار تركها واجباً من هذا القبيل . فسألتُ الكونت عن رأيهِ في هذا الكتاب وكنت احسب انهُ يلوم المؤلف ويقول انهُ اخطأ خطاءً فظيعاً لانهُ لم يذم الحرب من باب ادبي ويطلب منعها لانها غير جائزة بالذات اما هو فلم يقل ذلك بل قال انهُ كتاب كثير الفكاهة والفائدة ولا بدَّ من ان ينفع كثيراً اذا قرأهُ كل احد

وهذه اول مرة تجلّى لي فيها تولستوي كرجل نظري وعملي في وقت واحد . ثم اتضح لي ان

نظرهُ الى الكليات يختلف عن نظرهِ الى الجزئيات فاذا نظر الى الامور الكلية التفت الى المباديء الاصلية ولم يحد عنها شعرةً ولا قبل فيها معارضةً واما اذا نظر الى الجزئيات تساهل فيها وتسامح وراعي احوال الزمان والمكان

وافاض الكاتب بعد ذلك في الكلام على آراء تولستوي الدينية وتفضيلهِ الروسيين على غيرهم لانهم لا يزالون على السذاجة الفطرية البعيدة عن مساوىء العمران ولما ذكر لهُ الكاتب مزايا العمران الاوربي وما فيهِ من الروابط التي تكفل للناس راحتهم ورفاهتهم قال لهُ ان هذا العمران لا يصلح لروسيا ومن اكبر الخطإ ان نحاول النسج على منوالهِ. ومن رأي الكاتب ان تأثير تولستوي في روسيا قليل جدًّا الآن

وزارهُ المستر اندرو هويت العالم الشهير سفير اميركا في بطرس برج وفي المانيا وذاكرهُ في مواضيع مختلفة وبقي يتردد عليهِ الى ان عجم عودهُ وعرف خلَّهُ وخمرهُ وكتب عنهُ الآن مقالة مسهبة في مجلة مكاور ومما عزاهُ اليهِ انهُ لا يحسب النساء اهلاً للقيام بالمهام السياسية مطلقًا. وان من اكبر المشاكل الآن كثرة الاهتمام بامر النساء ومطالبهن. واعتراضهُ الاكبر على المرأة انها لا تستطيع ان تضحي مصلحتها لاجل غرض من الاغراض العامة النافعة. وقال انهُ لا يعرف الاَّ امرأتين او ثلاثًا من اللواتي ضحين انفسهن لمصلحة عمومية. والمرأة لا تعمل بمقتضى العقل غالبًا بل تراها دائمًا ميالة الى الخرافات والاوهام كالاعتقاد بالارواح والطب الهوموباثي وما اشبه

وقال المستر هويت انهُ رأى تولستوي يختلف عن كل الرجال المشهورين الذين لقيهم بافتقارهِ الشديد الى تحوير الآراء الذي ينتج عن مقابلة كثيرين من بلدان مختلفة وموازنة آرائهم بعضها ببعض. فان لكل امرء اراء ومذاهب خاصة بهِ فاذا اقتصر على التفكير بها ولم يقابلها بآراء غيرهِ صارت في نفسهِ كالولد المدلل الذي لا يحتمل اقل مقاومة وصار يراها عين الكمال خالية من كل عيب. وختم المستر هويت مقالتهُ بقولهِ

انا نرى هنا رجلاً نابغةً يحتقر العلوم كلها ويحث الناس على الرجوع الى الفطرة. يحرّم الزيجة وهو متزوج وعائش مع زوجتهِ على اتم الوفاق ولهُ ١٦ ولدًا. لا يحسب اسكيلوس ودانتي وشكسبير من نوابغ الشعراء لكنهُ يحسب ادين بالو من نوابغهم ولا يحسب ميخائيل انجلو ورفائيل من مشاهير النحاتين والمصورين و يفضل عليهم اناسًا خاملي الذكر. ولا يحسب بتهوفن وهندل وموزارت وهيدن من كبار الموسيقيين و يفضل عليهم اناسًا لا تعرف اسماؤهم. ولكن هذه السخائف وامثالها تنسى حالاً ويبقى من ذكر تولستوي ما امتاز بهِ من سمو الافكار ونبالة المقاصد

هذا يبقى منهُ على كرور الدهور وبهِ تستنير بلاد الروس ومنهُ تستفيد

وكتب تولستوي حديثاً في مجلة اميركا الشمالية يصف اصول الثروة فقال ان الغنى لا ينال بالعناء والاجتهاد بل بالغش والخداع وها ترجمة كلامهِ

" ان الفلاح الذي يفلح ارض غيرهِ ويبتاع ضروريات الحياة بالثمن الذي يُطلَب منهُ لا يستطيع ابداً ان يصير غنياً مهما كان مجتهداً مقتصداً. واما الرجل المحترف المبذِّر الذي يتسرَّب في مناصب الحكومة او ينال الحظوى لدى اربابها او يصير مرابياً او صاحب معمل او بنك او تاجر خمر او يقتني بيتاً للومسات فهذا ينال الغنى من اقرب طريق وامثلة ذلك كثيرة حولنا "

ثم قال " على مَ نرى الرجال الاقوياء الماهرين المتادين التغلب هم والفريق الاكبر من بني البشر يخضعون لاناس ضعفاء الابدان لرجال اخناث او شيوخ عجزة . لماذا نرى الاقوياء يتعبون لهؤلاء الضعفاء . لان الضعفاء قد امتلكوا الارض وخيراتها والمعامل وما فيها . والحق الذي يمتلك بهِ الغنيُّ الارض ويجني ثمار ما يتعب بهِ غيرهُ لا ينطبق على مبدإٍ من مبادئ العدل والانصاف وما هو الا اغتصاب تؤيدهُ القوة الحربية

وقد صار العمال آلات لقهر اخوانهم بصيرورتهم جنوداً للحكومة وآلات في يدها للقتل والفتك . وما دام الناس يحللون قتل غيرهم تبقى الجنود في يد رجال الحكومة اي في يد فريق صغير من الناس ويبقى هذا الفريق مستعيناً بهم على ابتزاز الاموال من الذين يكسبونها بعرق جبينهم . وشرٌّ من ذلك ان رجال الحكومة يفسدون جمهور الناس ولولا ذلك ما استطاعوا التسلط عليهم وابتزاز اموالهم . واصل كل الشرور ما رسخ في الاذهان من ان تجنيد الجنود لقتل الناس ليس اثماً بل هو شرف كبير وعمل نبيل لذلك لا تزول الشرور من الدنيا بتحرير الفلاحين ورفع الضرائب وتكثير الآلات والادوات ولا بابطال الحكومات الحاضرة بل بابطال كل تعليم ديني يجيز للناس ان يحملوا السلاح لقتل غيرهم "

وغنيٌّ عن البيان ان اقوالاً مثل هذه لا يترك قائلها وناشرها لا سيما وان لكلامهِ وقعاً كبيراً في النفوس ولذلك حرمهُ المجمع المقدس في بلاد الروس لاعتقادهِ انهُ ضلَّ عن سبيل الهدى. ولم يغظ هذا الحرم تولستوي لانهُ هو لا ينفي صحة الدين بل يقول ان دعاتهُ ضلوا عنهُ وعلَّموا الناس تعاليم منهم لا منهُ . واما زوجتهُ فاغتاظت من هذا الحرم وكتبت الى رئيس المجمع المقدَّس تعترض على ما فعل وتلومهُ لوماً شديداً . واعتصب التلامذة وذهب خمس مئة منهم الى كنيسة قازان وطلبوا ان يُحرَّموا مثلهُ ولذلك أُتبع الحرم بمنشور يقال فيهِ ان سبيل

الخلاص لا يزال مفتوحاً امامهُ اذا تاب ورجع عن ضلالهِ

اما هو فكتب كتاباً مسهباً الى القيصر يعترض فيهِ على نظام الحكومة الحاضر و يطلب مطالب كثيرة للاصلاح وهاك بعض فقراتهِ

اليكم نرفع خطابنا ياولاة الامور من القيصر واعضاء مجلس الحكومة الاعلى والنظار الى اقارب القيصر اعمامهِ واخوتهِ وكل الذين يستطيعون ان يكلموهُ . اليكم نرفع خطابنا لا كاعداء بل كاخوان مرتبطين معنا ارتباطاً متيناً (اردتم ذلك او لم تريدوه) حتى اذا حلّت بنا البلايا اصابكم شيء منها . ليس اللوم على الذين يثورون بل اللوم كلهُ عليكم لانكم لا تفتشون الاَّ عن راحتكم ورفاهتكم وقد كان الواجب عليكم ان تفتشوا عن سبب الثورة والشكوى وتزيلوهُ . والناس مسالمون بالطبع لا يطلبون الخصام والعداء بل يفضلون الوفاق والمسالمة فان كانوا قد ثاروا عليكم الآن وطلبوا الايقاع بكم فلا يكون ذلك الاَّ لانهم وجدوكم مانعاً يمنع عنهم وعن الملايين من اخوانهم اعظم نفع يطلبهُ الانسان في هذه الدنيا وهو الحرية والعلم . وغاية ما يُطلب منكم لكي لا يبقى سبيل لثورة العامة عليكم وهو نافع لكم ايضاً لاجل راحتكم وسلامتكم هذه الامور الطفيفة وهي

اولاً . المساواة بين الفلاحين والعمال وغيرهم من اهل الطبقات العليا (في امور ذكرها بالتفصيل مثل الغاء القوانين التي تربط العمّال باصحاب الاعمال واعفاء الفلاحين من الاموال الاميرية التي تأخرت على غيرهم ومن اخذ الجواز اذا ارادوا الانتقال من مكان الى آخر . ومن تقديم الخيل والعلائف لرجال الحكومة ولا سيما رجال البوليس ومن العقاب بالضرب)

ثانياً . الغاء الحكومة العرفية التي تلجأون اليها آونةً بعد أُخرى فتسلطون على الرعية اناساً ظالمين فاسقين سخاف العقول الخ

ثالثاً ازالة كل الموانع التي تمنع تعليم اولاد العامة لكي يتحرَّر جمهور الروسيين من ربقة الجهل . والجهل اكبر معين للحكومة على الاستبداد بهم

رابعاً واخيراً اطلاق الحرية الدينية

والكتاب طويل وعلى كل بند من هذه البنود شرح مسهب فاجتزينا بما تقدَّم . و يظهر منهُ ان تولستوي اعتدل كثيراً فصار يحسب للحكومة حساباً كبيراً و ينتظر منها نفعاً عميماً اذا عملت بمشورتهِ . وهذه المطالب التي طلبها معقولة كلها وان خلت منها مملكة الروس لا يخلو منها سواها من الممالك الاوربية . ولا بدَّ من ان تنتفع بلادهُ نفعاً كبيراً باقوالهِ وتحيي ذكرهُ مثل ذكر اعظم المصلحين الذين اصلحوا شؤون الناس